

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 12 (2011) : 205 – 209
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

وسائل الاصلاح الاجتماعي عند الشيخ أطفيش القطب

عبد الرحمان بن اعطى الله
قسم اللغة العربية وآدابها
المركز الجامعي تبسة

مقدمة

عرفت الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين حركات اصلاحية كثيرة وقفت في وجه الاستعمار الغاشم الذي حاول طمس هوية المجتمع الجزائري منذ استعمار البلاد سنة 1830م فكان لهذه الحركات الدور البارز في توعية المجتمع الجزائري والتأكيد على هويته العربية الاسلامية كما كان لرجال الاصلاح السمة الواضحة في تحريكه على نحو ساهم بشكل كبير في محاربة الاستعمار ونيل الاستقلال .

وما يلاحظ على حركات الاصلاح في القرنين التاسع عشر و العشرين الملاديين شموليتها لا من حيث مجالات اهتمامها سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية وتربوية، ولا من حيث مجالات انتشارها حيث عمت كل أقطار الوطن من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه مع وجود توحد تام من حيث اتباع طريق واحد يحقق وحدة الشعب الجزائري.

ومن أبرز الحركات الاصلاحية التي ظهرت في الجنوب الجزائري كان حركة الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش القطب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الميلادي بمدينة غرداية هذه المدينة التي تعتبر معقلا كبيرا للحركة العلمية الاباضية منذ العصر الوسيط وقام علمائها بدور بارز في النهوض بالحركة الثقافية والعلمية في العصر الحديث وبالتالي كانت معقلا لحركة المقاومة السياسية والفكرية ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم.

1–التعريف بالشيخ محمد بن يوسف أطفيش القطب

هو أمحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح بن عبد الرحمان بن عيسى بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله العزيز بن بكير الحفصي أطفيش، ولد سنة 1237هـ الموافق لسنة 1821م وتوفي سنة 1332هـ الموافق 1914م من عائلة معروفة في الوسط العلمي في مدينة غرداية.[1]

توفي والده وتركه يتيما في الرابعة من عمره فنشأ تحت كفالة والدته وعرف منذ صغره بحبه للعلم والعلماء فحفظ القرآن الكريم وهو ابن الثماني سنوات وانكب على حضور حلقات العلماء مما وسع من فكره العلمي وأخذ مبادئ النحو والفقه عن أخيه الأكبر ابراهيم بن يوسف كما تلقى مبادئ المنطق عن الشيخ سعيد بن يوسف وحضر دروس الشيخ بابا بن يونس في مسجد غرداية وحرص على اقتناء الكتب من مختلف الأقطار الاسلامية رغم صعوبة التواصل بينها في عصره.

لما بلغ العشرين من العمر أصبح عالم مشهور في منطقة بني ميزاب وبدأ ينشأ على يده جيل من العلماء حملوا راية العلم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي[2].

ولقد احتل مكانة بارزة من بين علماء العالم الاسلامي حتى قال عن تلميذه الشيخ أبو اليقظان في حديثه عن علماء الأمة ما يلي: (منهم الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيش الشهير بقطب الأئمة عند المغاربة، وبقطب المغرب عند المشارقة وهو جدير بحق هذا اللقب العظيم) .[3]

2–القطب وجهاده التربوي والاجتماعي:

أدرك القطب أهمية اصلاح المجتمع تربويا واجتماعيا هذا الاصلاح الذي يجب أن يكون نابعا من هوية المجتمع الجزائري ذي التوجه العربي الاسلامي وعدم ترك أي محاولة للاستعمار الذي حاول الحاق المجتمع الجزائري بنظيره الفرنسي، وقد قام الشيخ أطفيش بمحاولات كبيرة في هذا المسعى حتى قال عنه تلميذه أبو اليقظان يصف لنا شمائله الأخلاقية قائلا: (كان شديد الوطأة على الفساق والعصاة، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم شفوقا على الفقراء والمساكين، كريم النفس، سخي اليد، عطوفا على الملهوف، يفكر تفكيرا إنسانيا في أوسع آفاقه، شديد الاهتمام بأحوال العالم الإسلامي يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.[4]

هذه هي الأخلاق الإسلامية التي جيب أن تسود اليوم بين المسلمين كلهم، بدلا من التناحر والتنافر والحروب لأجل تحقيق أهداف دنيوية– وكل من قال وآمن بحق الشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله– فهو أخوك في الإسلام، تلزمك نجوه حقوق كثيرة أولها النصح في الله يقول الله سبحانه وتعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهَمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) التوبة:71

يجدر بنا الآن أن نشير إلى الجوانب الأخرى من شخصية القطب المتمثلة في المعرفة العلمية الصحيحة، بحيث أنه أدرك البعد العميق للعلم الصحيح ما دام يسعى إلى سعادة الدنيا والآخرة، يقول رحمه الله– الورع بالعلم هو عماد الدين وهو الكف عما يوجب النار.

إذن فالعلم الصحيح عنده يجب أن يكون مبنيا على التقوى وإخلاص النية لله عز وجل لخدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة تدريسا وتأليفا وسلوكا، وهذا لن يكون إلا لمن التزم بالقيم الأخلاقية الإسلامية وحارب الجهل مهما كانت طبيعته وهذا الأمر لا يحصل إلا لمن اكتسب

أمهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية.[5]

وسائل الاصلاح التربوي والاجتماعي عند القطب الشيخ محمد بن يوسف أطفيش تحتاج كل عملية اصلاح الى مجموعة من الوسائل التي يمكن من خلالها ايصال مضمون الحركة الاصلاحية الى مختلف الفئات الاجتماعية ، ونظرا للأوضاع السياسية والاجتماعية التي ميزت عصر الشيخ القطب من خلال سيطرة المستعمر على ادارة شؤون البلاد وتضييقه على الحريات والعمل على افشال جهود العلماء فإن الوسائل التي أتيحت للشيخ كانت مستعصية وخاضعة لرقابة المستعمر الغاشم ويمكن ابراز الوسائل التي اعتمد عليها الشيخ على الشكل التالي:

1–المسجد:

يعتبر المسجد من أهم الوسائل التي اعتمد عليها الشيخ بهدف ايصال أفكاره الاصلاحية ، فقد كان يلقي فيه خطبه الدعائية الهادفة لتوعية المجتمع ومحاربة ما لحق به من بدع وتغلغل للثقافة الغربية فقد استمر في القاء الدروس طيلة أيام الأسبوع من الضحى الى الزوال إلا يوم الجمعة، ثم يخصص الفترة المسائية كذلك بعد العصر.[6]

وكانت حلقة العزابة بمسجد بني يزقن بغرداية حلقة هادفة لتربية النشأ ومحاربة الآفات الاجتماعية والفتوى في مسائل وقضايا المجتمع معتمدا في ذلك على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[2]

2–المعهد

أسس الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش معهده في مدينة القرارة حيث شهد حركة علمية واسعة استقطبت الأنظار وجلبت اليه العديد من الطلبة من مختلف أنحاء الجزائر وحتى من الدول المجاورة خاصة من تونس وليبيا.[7]

وكان المعهد يخرج دفعات متتالية من الطلبة والذين بدورهم نشروا رسالة الشيخ الاصلاحية في مختلف الأقطار فساهموا بذلك في القضاء على الجهل ومحاربة مظاهره واصلاح أوضاع المجتمع ، وفي نفس الوقت كان هذا المعهد الأساس الأول لقيام معهد الحياة فيما بعد .[8]

3–الكتب

لم يغفل الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش عن مجال التأليف باعتباره من أهم الوسائل التي يمكن من خلالها ايصال أفكار الاصلاح الى المجتمع ، فقد كان يخصص وقت الليل للتأليف والاجابة عن الرسائل والاستفهامات حتى عد البعض له حوالي 800 كتاب ورسالة حيث أينما ارتحل كان يؤلف فقد ألف في غرداية والقرارة وورجلان وفي السفينة قاصدا الحج ، كما له مؤلفات في مختلف الفروع في التفسير، التجويد، علم الحديث، التوحيد، السيرة النبوية

الشريفة، أصول الفقه، التاريخ والأدب.[9]

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة الموجزة عن الشيخ القطب يوسف بن محمد أطفيش أمكننا استخلاص بعض النتائج على الشكل التالي:

1– ان حركة الشيخ أطفيش القطب حركة اصلاحية نابعة من تطلعات المصلحين الجزائريين لتغيير المجتمع ودفعه نحو الهوية الحضارية العربية الاسلامية وقطع الطريق عن محاولة الاستعمار الفرنسي طمس تلك الهوية

2– كانت حركة الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش حركة شاملة امتد أثرها حتى الأقطار العربية البعيدة عن الجزائر كسلطنة عمان ولهذا فإن دوافع وطريق الإصلاح كان موحدا في وطننا العربي وهو ما يظهر عند دراستنا لهذه الحركة الاصلاحية التي انطلقت من الجنوب الجزائري.

3– أقام الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش صرحا علميا كبيرا في مدينة غرداية وقام بدوره الحضاري الهام بالحفاظ على هوية المجتمع الجزائري ومحاربة الاستعمار الفرنسي وثقافته.

4– كانت المساجد والمدارس وسيلة هامة اعتمد عليها الشيخ القطب في ايصال أفكاره الى المجتمع ولم يغفل بدوره عن التأليف ونشر الوعي من خلال العشرات من كتبه والتي يمكن اعتباره شكلت ارثا حضاريا بارزا في مجتمعاتنا العربية الاسلامية.

أفاق الموضوع:

ان تسليط الضوء على شخصية الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش من المواضيع الهامة في فصول كتابة تاريخ الوطن والأمة الاسلامية ، كما يطرح هذا الموضوع أفاق جديدة للدراسة يمكن ايجازها كما يلي:

1– تسليط الضوء على العديد من المخطوطات التي كتبها القطب محمد بن يوسف أطفيش ودعوة الباحثين الى تحقيقها ونشرها على شكل بحوث وكتب ورسائل علمية أكاديمية .

2– دعوة الجهات المختصة الى البحث في منهجية ووسائل الاصلاح عند علمائنا وتطبيقها على المجتمع الحديث فلاحظنا كيف سلك الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش طريقا رد به محاولات الاستعمار طمس معالم الشخصية الوطنية.

3– محاولة ايجاد رابط مشترك بين الحركات الاصلاحية التي ظهرت في الجنوب الجزائري والحركات الأخرى من مختلف أرجاء الوطن وغيرها من الحركات في الوطن العربي خصوصا في هذه الفترة الزمنية (القرنيين 19و20 الميلاديين) وهي فترة انشار الحركات الاصلاحية بشكلها

الواسع.

4- ترقية هذا الملتقلا الى ملتقى دولي ، ذلك أن شخصية القطب محمد بن يوسف أطفيش لها صيت ذاع في مختلف الأقطار العربية وفكره شملها أيضا وبالتالي ابراز دور العلماء الجزائريين في النهضة العربية الاسلامية.

الهوامش:

[1]- محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، 2000م، ص، 399.

[2]- المرجع نفسه.

[3] **http://www.taddart.org/ar/?p=28.**

[4]- محمد بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399.

[5]- مركز تادارت ، المرجع السابق.

[6]- محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399

http://alkabs.net/index.php?option=com_content&task=view&id=2013&Itemid=3012 موقع القبس بتاريخ 2010/10/09م

[7]- قاسم الشيخ بلحاج، 2008م، ص، 108.

[8]- نفسه، ص، 110.

[9]- محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، المرجع السابق، ص، 399.